قضيت اللغة العربية - ٢ -

الإصطلاحات الفلسفية

بقلم الدكتور جميل صليبا

اللغة العربية من اغنى اللغات ، واوسعها اشتقاقاً ، وادقها تعبيراً ، صقلتها القرائح والعقول في الماضي بضعة عشر قرناً حتى جعلتها لغة الشعر والخطابة ، واصطنعها العلماء في مفردات الطب و كيمياء و لرياضيات والفلسفة حتى جعلوها لغة العلم والثقافة .

والسبب في اتساع اللغة العربية لجميع الاصطلاحات العلمية انها لغة غنية كثيرة المرونة ، لطيفة المخارج ، فيها الفاظ متباينة ، ومتفقة ، ومترادفة ، ومشتقة (١) . وربما وجدت فيها ايضاً الفاظ مختلفة دالة على معان متقاربة ، وان كانت اشخاص تلك المعاني مختلفة ، وربما دلت على احوال مختلفة ولكنها مع اختلافها هي لشخص واحد .

ولكن هذه المرونة في دلالة الالفاظ على فائدتها لا تخلو في بعض الاحيان من الالتباس والاشكال ، ولا من الغلط والخطأ في التعبير . لان الاصل في الكلام اختلاف الالفاظ باختلاف المعاني . ومن حق المعنى كما قال الجاحظ ان يكون الاسم له طبقاً ، وان لا يكون له فاضلا ولا مفضولا ، ولا مقصراً مشتركاً ولا مضمناً (٢) .

ولكن العلماء الذين اخذوا في عشرات السنين الأخيرة يدونون علوم العصر ، وينقلونها من اللغات الاوربية الى اللغة العربية لم يتقيدوا بهذا الاصل الذي قدمناه ، بل مالوا الى استعمال الالفاظ المترادفة للدلالة على المعنى الواحد ، او الى استعمال اللفظ الواحد للدلالة على المعاني المختلفة . فعرض لهم من الخلاف في المعاني ما عرض للشعراء والخطباء واصحاب السجع من استعمال الالفاظ المترادفة والمتواطئة ، وان كانت متباينة بالحقيقة ، فادى فعلهم هذا الى الالباس والاشكال ، والى كثير من الغلط والخطأ . مع انه كان ينبغي لهم اذا وجدوا الفاظاً مختلفة متقاربة المعاني ان ينظروا فيها ويبحثوا عن السبب في اختلافها ليضعوا لكل معنى لفظاً مطابقاً له ، الا انهم قلدوا في ذلك البلغاء والشعراء والخطباء فجاءت اصطلاحاتهم كثيرة الغموض وعلومهم قليلة الوضوح والضبط .

والدليل البين على أن الامر ما ذكرناه ان الشخص الواحد يستعمل للدلالة على المعنى الواحد الفاظاً مختلفة فيترجم كلمة (Déduction) تارة بالاستدلال واخرى بالاستنتاج او بالاستنباط ، ويستعمل اللفظ الواحد للدلالة على المعاني المختلفة فيترجم كلمات (Raison و Intelligence و Bon sens) كلها بكلمة عقل .

واذا كان الشخص الواحد لا يتقيد هو نفسه بالاصطلاحات التي اختارها ، فما بالك بالمترجمين الآخرين الذين يوافقونه على اختياره او يخالفون انفسهم ؟ وما بالك بالقارئ الذي يجهل اللغة الاجنبية ، هل يفهم ما يقوله هؤلاء وما يكتبونه ؟

ان مدار الامر والغاية التي يجري اليها الكاتب والقارئ ، انما هو الفهم والافهام . فاذا كانت معاني الالفاظ تختلف باختلاف القائل والسامع فكيف تصح ، وكيف تفهم ؟ ان التفاهم بالفاظ متبدلة المعاني اصعب من التعامل بنقود متبدلة القيم . فلا بد للعلماء اذن من الاتفاق على معاني الالفاظ . ولا بد لهم من تثبيت الاصطلاحات العلمية حتى لا تتبدل الحقائق بتبدل الالفاظ التي افرغت فيها . ان الالفاظ حصون المعاني وتثبيت الاصطلاحات العلمية هو الحجر الاساسي في بناء العلم . فاذا اقيم هذا البناء على اساس متحرك لم يبلغ الغاية التي انشئ من اجلها

---

(١) المتباينة هي التي تختلف باختلاف المعاني ، والمتفقة هي التي تتفق فيها الفاظ واحدة بعينها ومعانيها مختلفة ، والمترادفة هي التي تختلف الفاظها ومعانيها واحدة .

(٢) البيان والتبيين ، الجزء الأول ، ص : ٧٥ .

على انه قد يقال ان الأساس في العلم هو الكشف عن الحقائق ، وان الحقيقة اذا كشفت فبأي لغة بلغت الافهام فذاك هو البيان المطلوب . ولكن هذا القول يهمل ناحية اساسية من الاصطلاحات العلمية وهي ان السبب الذي من اجله احتيج الى وضعها لا يقتصر على الافهام وحده . لأن العالم بالشيء يفهمه مهما تكن اللغة التي تستعملها في تفهيمه اياه ركيكة ومضطربة . ولكن تثبيت الاصطلاحات العلمية لا يفيد العلماء الاخصائيين وحدهم بل يفيد المعلمين والمتعلمين كما يفيد جمهور القراء . فله اذن فائدة في التربية ، وفائدة اجتماعية معاً .

اما الفائدة في التربية فهي ان تثبيت الاصطلاحات يستلزم تحديد معاني الالفاظ وتوضيحها ، فلا يستعمل اللفظ الا فيما وضع له ، ولا يدل على المعنى الواحد الا بلفظ واحد . وفي ذلك تيسير لعمل المعلمين والمتعلمين معاً . لأن المعاني اذا كانت محددة ، سهل على المعلم شرحها وعلى المتعلم فهمها . وكذلك الالفاظ اذا كانت مطابقة للمعاني صار استعمالها ادق ووضوحها اتم . وقد عرفنا بالتجربة ان التلاميذ الذين يقرأون النصوص الفلسفية دون ان نشرح لهم اصطلاحاتها يضيعون زماناً طويلا في تفهم ما يقرأون دون ان يصلوا الى نتيجة . وكثيراً ما يورثهم هذا الامر كرهاً للفلسفة وعجزاً عن النجاح في الامتحان . حتى ان بعضهم وان نجح في فحوصه يعتاد استعمال الالفاظ الفارغة فيردد ما قرأه كالببغاء او يلوكه كما يلوك الطفل طعامه ، وهذه العقول الببغائية التي تردد الالفاظ الفارغة تعجز في مستقبل حياتها الفكرية عن الانتاج العلمي . وربما كانت تمارين الترجمة التي تقتضي مراجعة معاني الالفاظ في المعاجم العلمية والفلسفية خير وسيلة لشفاء هذه العقول من الببغائية الفكرية ، لانها تمنعها من استعمال الفاظ لم تتضح معانيها ، وتعودها الدقة في التعبير ، والمطابقة بين المعنى واللفظ ، فلا يكون احدهما زائداً على الآخر .

واما الفائدة الاجتماعية فهي ان تحدد معاني الالفاظ يسهل على الناس التفاهم فيما بينهم ، فلا يتكلمون بما لا يعملون ، ولا يمارون فيما لم يتضح لهم من المعاني . ان معظم الاختلافات في الآراء السياسية والاجتماعية يرجع الى ان الناس لم يحددوا معاني الالفاظ التي يجادلون فيها ، فالحرية والعدل والمساواة لا تدل على معان واحدة عند الاشتراكيين والممولين ، وكذلك الحق والواجب والخير والكرامة وغيرها . فاذا اردت ان تحسم الخلاف بين الناس ، وتحقق التفاهم بين اصحاب المذاهب المتباينة فابدأ اولا بتحديد هذه المعاني تحديداً علمياً واضحاً . ان هذا التحديد يقرب الآراء بعضها من بعض ويبطل اسباب الخلاف ، ويوفر على الناس كثيراً من الجهد والوقت .

وربما كانت الالفاظ التي يستعملها المترجمون المحدثون اكثر الالفاظ احتياجاً الى هذا التحديد ، لانهم كما قلنا ، لا يطلقون على المعنى الواحد لفظاً واحداً . مثال ذلك ان بعضهم يترجم كلمة (Intuition) بكلمة حدس ويترجمها الآخر بالبداهة او الاكتناه ، او الاستبصار ، وكذلك كلمة (Conscience) بعضهم يترجمها بالشعور وبعضهم يترجمها بالوعي . فاذا استمر الامر على هذه الحال ادى الى كثير من الفوضى والاضطراب ، لان النقلة ، اذا لم يوحدوا اصطلاحاتهم عجزوا هم انفسهم عن فهم ما ترجموه . ولا يكفي ان تتطور الاصطلاحات العلمية تطوراً عفوياً حتى تصل الى الوحدة ، لأن التطور العفوي قد يؤدي الى الاحتفاظ بألفاظ كثيرة للدلالة على معنى واحد ، واذا ادى انتصار لفظ على غيره لم يكن هذا اللفظ الفائز في المعركة احسن الالفاظ دائماً . فلا بد اذن من توجيه هذا التطور حتى يبلغ غايته . والوسيلة الوحيدة للتوجيه الصحيح تقتضي انشاء مجمع علمي واحد ينتقي من الاصطلاحات التي اهتدى اليها النقلة الاخصائيون اصطلاحاً واحداً يثبته ويحله حظيرة اللغة ، لا ان يضع هو نفسه اصطلاحاً علمياً جديداً . ذلك لانه ليس من شأن المجامع العلمية ان تضع الاصطلاحات وانما هي بمثابة عضو رئيسي في جسم العلم ؛ ينقح ما يكشفه العلماء ، ويمحصه وينظمه ويثبته . واذا خرجت المجامع العلمية عن هذا الحد الذي يجب عليها ان تقف عنده عرضت نفسها لكثير من الخطأ والغلط والنقد .

ان لكل علم لغة فنية ، والعلماء الاختصاصيون وحدهم يفهمون هذه اللغة . فانت لا تفهم معنى كلمة (تفاعل) الا اذا كانت كيماوياً ، كما انك لا تفهم معنى الساحة المغناطيسية الا اذا كانت فيزيائياً . ومن كان طبيباً كان قادراً على الكلام عن المرض بلغة لا يفهمها المريض . وكذلك لما كانت الالفاظ التي يستعملها الادباء الصحافيون والمحامون كان هذا الاتفاق

فيها ادعى الى الاشكال والاضطراب . ان رجال الادب لا يستغنون عن اصطلاحات علم النفس ، كما ان رجال السياسة لا يستغنون عن اصطلاحات علم الاجتماع والاخلاق . ولكن الفلاسفة الذين يستعملون كلمة ذاكرة وعقل وحقيقة وواجب وحرية وارادة لا يبلغون غايتهم الا اذا كانت هذه المعاني المتصورة في اذهانهم محددة معرفة . وكثيراً ما يكون لبعض هذه الالفاظ في اذهانهم معان مخالفة لما يتصور المحامون والاطباء والمهندسون . فينبغي لنا اذن اذا شئنا ان نختار اللفظ الموافق للمعنى العلمي ان نعتمد في ذلك على ارباب الاختصاص لان صاحب البيت أدرى بالذي فيه . ومتى عرض علينا الاخصائيون الناظم نقحناها ومحصناها واخترنا اوفقها واصلحها وثبتناه في معاجم اللغة .

والسبيل الواضحة والطريقة الصحيحة التي يجب على الاختصاصيين اتباعها في وضع الاصطلاحات العلمية الموافقة تنحصر عندنا في القواعد الآتية :

القاعدة الاولى : هي البحث في الكتب العربية القديمة عن اصطلاح مستعمل للدلالة على المعنى المراد ترجمته . ويشترط في هذه القاعدة ان يكون اللفظ الذي استعمله القدماء مطابقاً للمعنى الجديد . فاذا وجدناه مطابقاً له اطلقناه عليه دون تبديل او تغيير ، مثال ذلك ان القدماء اطلقوا لفظ الجوهر على المعنى الذي تدل عليه كلمة (Substance) واطلقوا لفظ المقولات على المعنى الذي تدل عليه كلمة (Catégories) فاذا اردنا ان نترجم هذه الالفاظ اطلقنا عليها الاسماء التي سماها من عرفها من اصحاب اللغة .

والقاعدة الثانية : هي البحث عن لفظ قديم يقرب معناه من المعنى الاوربي الحديث ، فيبدل معناه قليلا ويطلق على المعنى الجديد . مثال ذلك ما ترجمنا به لفظ (Intuition) فقد اطلقنا على هذا المعنى اسم الحدس بعد ان وسعنا معناه القديم . فالحدس كما يقول الجرجاني في تعريفاته « هو سرعة انتقال الذهن من المبادئ الى المطالب ويقابله الفكر ، وهو ادني مراتب الكشف » ، والحسيات عنده هي « ما لا يحتاج العقل في جزم الحكم فيه الى واسطة بتكرر المشاهدة » ، ويعبر ابن سينا عن ذلك بقوله : « ان من المتعلمين من يكون اقرب الى التصور لان استعداده ... اقوى ، فان كان ذلك الانسان مستعداً للاستكمال فما بينه وبين نفسه سمي هذا الاستعداد حدساً ، وهذا الاستعداد قد يشتد في بعض الناس حتى لا يحتاج في ان يتصل بالعقل الفعال الى كبير شيء والى تخريج وتعليل» . ثم يقول : « الحدس فعل للذهن يستنبط به بذاته الحد الاوسط . والذكاء قوة الحدس ، وتارة يحصل بالتعليم ومبادئ التعليم الحدس . فان الاشياء تنتهي لا محالة الى حدوس استنبطها ارباب الحدوس ، ثم ادوها الى المتعلمين . فيمكن ان يكون شخص من الناس مؤيد النفس بشدة الصفاء وشدة الاتصال بالمبادئ العقلية الى ان يشتمل حدساً اعني قبولا لالهام العقل الفعال في كل شيء ، فترتسم فيه الصور التي في العقل الفعال من كل شيء اما دفعة واما قريباً من دفعة (١)» ويقول ايضاً في كتاب الاشارات : « واما الحدس فهو ان يتمثل الحد الاوسط في الذهن دفعة ، اما عقيب طلب وشوق من غير حركة واما من غير اشتياق وحركة » (٢) . فهذه النصوص كلها تبين لنا ان معنى الحدس عند القدماء هو اصابة الحد الاوسط اذا وضع المطلوب ، او اصابة الحد الاكبر اذا اصيب الاوسط ، وبالجملة سرعة الانتقال من معلوم الى مجهول . فهذا المعنى كما ترى يختلف بعض الشيء عن المعنى الذي تدل عليه كلمة حدس عند المحدثين . ولكننا نلاحظ ان للحدس عند كل من هؤلاء الفلاسفة معنى خاصاً . فهناك حدس عقلي كحدس البداهة ، وهناك حدس حسي وحدس نفسي كالذي تكلم عنه « برغسون » . فاذا كان معنى الحدس مختلفاً باختلاف الفلاسفة ، فان اختلاف معناه في الفلسفة الحديثة عن معناه في الفلسفة العربية القديمة لا يمنع من اطلاق اللفظ نفسه على المعنيين . ولا حاجة الى البحث عن لفظ آخر كلفظ البداهة الذي اختاره بعضهم للدلالة على هذا المعنى لان البداهة انما تقابل كلمة (Evidence) لا كلمة حدس . فيكفي اذن في هذه الحالة الاعتماد على اللفظ القديم مع تبديل معناه وتحديده تحديداً جديداً .

والقاعدة الثالثة : هي البحث عن لفظ جديد لمعنى جديد مع مراعاة الاشتقاق العربي ، كأن تستعمل لفظ الشخصية للدلالة على (Personnalité) ولفظ الاستبطان للدلالة على (Introspection) ولفظ الاهتمام

(١) ابن سينا : النجاة ، ص ٢٧٢ — ٢٧٤ من طبعة القاهرة .
(٢) ابن سينا : الاشارات ، ص ١٥٣ — ١٥٦ من الطبعة الخيرية القاهرة ١٣٢٥ .

للدلالة على (Intérêt) ولفظ الانحاء للدلالة على (Tropisme) ولفظ التكيف او المؤالفة للدلالة على (Adptation) . فهذه كلها اصطلاحات حديثة لم يستعملها القدماء ولكننا نستعملها مطمئنين لانها مسايقة للاصول التي وضعها اصحاب اللغة ، وهذا شبيه بما فعله القدماء من استعمال قوة للدلالة على (Puissance) وكلمة فعل للدلالة على (Acte) وكلمة صورة للدلالة على (Forme) وكلمة امكان للدلالة على (Possspilité) فقالوا ان الامكان في الشيء هو جواز ظهور ما في قوته الى الفعل ، وطبيعته بين الواجب والممتنع ، فاشتقوا من الامكان التمكين بمعنى اخراج الشيء من القوة الى الفعل بالارادة وقد يجيء التمكين عندهم بمعنى آخر وهو ان يكون تفعيلا من المكان . فقولهم مكنت الحجر في موضعه اذا وفيته حقه من بسط المكان وتسويته ليلزمه ولا يضطرب وليس في استعمالنا اليوم لفظ الحتمية (Déterminisme) والموضوعية (Objectivité) والوضعية (Positivisme) شطط ، ما دام العلماء من علمائنا لم يحجموا عن استعمال لفظ الهوية والآنية والصوفية وغيرها . ولكن اللغويين المحافظين منا لا يريدون ان يخرجوا من قفص المعاجم ، كأن الالفاظ التي اصطنعها علماؤنا القدماء في الفلسفة والطب والفلك والرياضيات والطبيعيات لم توضع الا اعتباطاً .

والقاعدة الرابعة : هي اقتباس اللفظ الاجنبي بحروفه على ان يصاغ صياغة عربية كقولنا (هرمية) في ترجمة (Hormique) وقولنا (الراد) في ترجمة (Radium) او قولنا (المنادة) في ترجمة (Monade) ، او قولنا الديمقراطية (Démocratie) ومن البديهي انه لا ينبغي لنا العمل بهذه القاعدة الا عجزنا عن اشتقاق لفظ عربي للدلالة على المعنى الجديد .

فاذا كانت كتب العلم القديمة لا تحتوي على لفظ نقتبسه كما هو او نبدله ، وكانت اللغة نفسها لا تشتمل على اسم قريب من المعنى نشتق منه فعلا او صفة ، كان استعمال اللفظ الاجنبي اوفى بالقصد واقرب الى الوضوح من اطلاق لفظ عربي غير مألوف يفرض على العلم فرضاً . ان علماءنا القدماء لم يجدوا في استعمال كلمة فلسفة وكلمة جغرافيا وكلمة كيمياء انتقاصاً من حقوق اللغة العربية ، فاذا سمعنا اليوم كلمة (فيزياء) للدلالة على (Physique) وكلمة ديمقراطية للدلالة على (Démocratie) فاننا لا نكون أقل منهم اصابة . فهم قد استعملوا كلمة البخت مع انه لا وجود لها في لغة العرب .

يقول صاحب كتاب الهوامل والشوامل في الجواب عن احدى المسائل : « على اني رأيتك تستعفي ان تفهم حقيقة الا ان تكون في لفظ عربي . فان عدمت لغة العرب رغبت في العلوم لكنا ايدك الله لا نترك البحث عن المعاني في اي لغة كانت وبأي عبارة حصلت » (١) . وهذا القول يدلنا على ان القاعدة الرابعة التي ذكرناها هي السبيل الواضحة التي يجب سلوكه عند افتقار اللغة العربية الى لفظ اجنبي لا يدل على المعنى الجديد الا به ، شأنها في ذلك شأن سائر اللغات التي تقتبس المعنى العلمي الجديد باللفظ الذي اختاره واضعه . فنقول مثلا ميكرسكوب وتلسكوب كما نقول سينما وتلفزة دون ان نخل بلغة العرب ، لان انتشار هذه الالفاظ على السنة الناس يجعل استعمالها في الكتب العلمية اوفى بالقصد من استعمال لفظ المكبرة والمنظار والصور المتحركة وغيرها . فالمعاني القائمة في الصدور كما يقول الجاحظ مستورة خفية وبعيدة وحشية ومحجوبة مكنونة (٢) وانما تحيا تلك المعاني في ذكر الناس لها واخبارهم عنها واستعمالهم اياها . ومهما يكن الاصطلاح العلمي وحشياً بعيداً عن المألوف فانه اذا انتشر على السنة الناس كان أحق بالترجيح من اللفظ الصحيح الذي لم يكتب له الانتشار . واللفظ المشهور كما قال بعضهم خير من الصحيح المهجور .

هذه اربع قواعد ذكرناها هنا على سبيل الاشارة لا على سبيل الاحاطة . ولا نزعم ابداً اننا استقصينا بها جميع الصعوبات التي تعترض طريق المترجم . ان العلماء الاوربيين يعتمدون في وضع الاصطلاحات العلمية على اللاتينية واليونانية . وفي وسعهم ان يؤلفوا كلمات مركبة من كلمتين او اكثر او ان يضموا السوابق (Préfixes) او اللواحق (Suffixes) الى جذر المادة الاصلية بحيث يتألف منها كلمات متكاملة دالة على معان متباينة . مثال ذلك ان (Synthèse) و(Parenthèse) و (Antithèse) و(Hipothèse) تدل على معان مختلفة جذرها الاصلي واحد . اما الاشتقاق في اللغة العربية فانه يغير الاصل الثلاثي بما يضيفه عليه من حروف الزيادة . وليس في اللغة العربية سوابق ولواحق مضافة على الاصل ، كما انه لا يمكنها الآن ان تستمد من غيرها من اللغات القديمة ما تستمده اللغات من اللاتينية واليونانية ... وهذه صعوبة اخرى يجب التغلب عليها بما امتازت به اللغة العربية من سعة المناهج ولطف المخارج وسهولة الاشتقاق .

جميل صليبا

---

(١) الهوامل والشوامل لأبي حيان التوحيدي ومسكويه ، ص : ١٠٤ القاهرة ١٩٥١ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، الجزء الاول ، ص ٦٨ .